ثنائية الشباب/المشيب والموقف من الزمن:
قراءة في شعر ابن خفاجة الأندلسي

فتيحة دخموش، المدرسة العليا للأساتذة ـ قسنطينة، الجزائر

❖❖❖❖❖

ملخص:

شكلت ثنائية الشباب/المشيب ظاهرة بارزة في شعر "ابن خفاجة الأندلسي "، فالشاعر لا يعبر عنها تعبيرا عارضا، بل نراها تلح عليه في معظم الأغراض التي نظم فيها، وتتصل بكل موضوع شعري قال فيه، الأمر الذي جعلها تتخذ أبعادا مختلفة شكلت في مجملها رؤية الشاعر للوجود وموقفه من الزمن. وقد حاولت هذه الدراسة تسليط الضوء على تلك الأشعار التي تهيمن عليها هذه الثنائية ـ الظاهرة ـ من خلال التعمق في قراءة بعض النماذج بهدف الكشف عن تلك الأبعاد الدلالية والفنية التي فرضتها هذه الإشكالية الزمنية على تجربة الشاعر.

Abstract

The youth/old age dichotomy creates an outstanding feature in the poetry of Ibn Khafajah al-Andalussi. The poet does not express the dichotomy casually but rather emphasizes, in most of his poems, that it is tied up to every topic he tackled, leading thus to different perspectives which create the poet's view of existence and his stand regarding time. This study attempts to shed light on poems dominated by this dichotomy, or phenomenon, through a close consideration of some poems in order to discover the semantic and artistic perspectives imposed by this temporal question on the poet's experience.

❖❖❖❖❖

تقديم

تتصل ثنائية الشباب/المشيب بمسألة الزمن، وهي مسألة إنسانية تخص كل إنسان حي على وجه الأرض، كما أنها سنة الله في خلقه يولد الإنسان ضعيفا ثم يقوى في عمر الشباب ثم يعود إلى ضعفه في مرحلة الشيخوخة، ويحدثنا القرآن الكريم في بعض الآيات عن هذه المراحل التي يمر بها الإنسان، يقول تعالى: «الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ويخلق ما يشاء وهو العليم القدير»، [1] ويقول أيضا «ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا». [2] فالآيتان تشيران إلى التعارض القائم بين هاتين المرحلتين من حياة الإنسان الشباب/المشيب، إذ تمثل الأولى القوة والإقبال على الحياة، وتمثل الثانية الضعف والعجز والإحساس بقرب الأجل.

والشباب/المشيب من الموضوعات التي شكلت محورا بارزا في الشعر العربي القديم سواء أكان ذلك في المشرق أم في الأندلس، لاسيما لدى الشعراء المعمرين الذين قضوا جانبا كبيرا من حياتهم في طلب اللهو والملذات، ويعد ابن خفاجة الأندلسي من هؤلاء الشعراء الذين أصابوا من الحياة دهرا طويلا حتى أنه جاوز الثمانين على ما يذكر ابن شكوال، [3] . قضى معظم شبابه محبا للحياة مستمتعا بمتاعها، حتى إذا امتدت به السنون وفقد كثيرا من الأمور التي كان يمارسها في شبابه، حيث شرب الخمر، وتغزل بالنساء والغلمان واستمتع بمجلس الخلان وبدت أول شعرة شيب في رأسه أخذ يتحسر على تلك الأيام وذلك العهد، وازداد ندبا كلما زحف المشيب على رأسه وتمكنت منه الشيخوخة، من هنا كان لهذه الثنائية الشباب/المشيب أثر واضح في إنتاجه الأدبي.

و ظاهرة بكاء الشباب والتحسر على الماضي تلح على ابن خفاجة ليس في شعره وحسب، بل حتى في نثره، لذلك نراه يستعمل مقدمة ديوانه مباشرة بهذه الإشكالية أو الثنائية التي تؤرقه (إشكالية الشباب/الشيخوخة) ، فيقول في طرفها الأول وهو بصدد ذكر الشعراء الذين تأثر بهم : «أما بعد فإني كنت والشباب يرف غضارة، ويحف بي غرارة، فأقوم طورا وأقعد تارة. قد جنحت إلى الأدب أرتاده مرتعا وأرده مشرعا...»[4] .و يقول في طرفها الثاني الذي يشكل مرحلته الحاضرة وهو بصدد الحديث عن تركه نظم الشعر: «ولما انصدع ليل الشباب عن فجره، ورغب المشيب بنا عن هجره، نزلت عنه مركبا، وتبدلت به مذهبا، فأضربت عنه برهة من الزمان طويلة، إضراب راغب عنه، زاهد فيه ...»[5]

بناء على ما سبق ستحاول هذه الدراسة أن تتعرض لغربة الشاعر الزمانية، أي غربته في الزمن الحاضر (المشيب) ، وحنينه إلى الزمن الماضي (الشباب) ، لتكشف عن رؤية ابن خفاجة لعنصر الزمان من خلال خبرته الذاتية[6] ، وإحساسه بقوة التغيير التي مارسها عليها الزمن الخارجي وجعل نفسه تغترب عن نفسها وعن الزمن من جهة ، دون إغفال إحساس الذات الخفاجية بالزمن كنسبة ذاتية لا تخضع للقياس المحدد بالساعة من جهة أخرى ، هذا الزمن النفسي الذي يمر أحيانا بسرعة وأحيانا ببطء ، إنه الزمن الإنساني الذي يمكن أن ندرج تحته زمن الاغتراب .

وإذا كانت ظاهرة الحنين إلى الزمان الماضي ممثل في الصبا والشباب انطلاقا من الزمن الحاضر ممثل في الشيخوخة ، ظاهرة إنسانية مألوفة ومشتركة بين جميع الناس وجميع الشعراء ، فإن تشكل عند ابن خفاجة – بالذات- محورا بارزا في تجربته الشعرية على وجه الخصوص ، حيث يدخل في حنينه إلى الماضي ، الحنين إلى الشباب والصبا ، فيكثر من ذكر الماضي على الرغم من تقادم الأيام والأعوام ، الأمر الذي يجعل من الحضور المكثف للماضي عندهم ، أهم ما يميزه عن بقية الشعراء ، وهذا ما ستحاول الدراسة الكشف عنه على مستوى خطابه الشعري .

مظاهر إشكالية الشباب/المشيب في شعر ابن خفاجة

تدل أخبار ابن خفاجة وتنم أشعاره – كما يذكر د/ رضوان الداية – " عن رجل مرهف الإحساس ، مضطرم العاطفة ، سريع التأثر والانفعال . لقد كان الشاعر مغرقا في محبة وطنه الأندلس ، وحب وطنه الصغير : جزيرة شقر. وكان أيضا وفيا لأصدقائه ، مرتبطا بهم ، كثير العودة في شعره إلى ذكرياته معهم ، والى ذكريات الصبا وأيام الشباب"[7] ، الأمر الذي جعل من الماضي صورة ماثلة في فكر هذا الشاعر وذهنه يكثر من ذكرها والكلام عنها.

وتبدو مسألة الإحساس بالزمن ومأساة انقضائه واضحة في أشعار ابن خفاجة ، وتتمحور قصائده حول تجربته الذاتية ورؤيته للعالم أواخر حياته ، وهي رؤية متأزمة تنم عن الإحساس بالمرارة ، إنها تصور رؤية الشاعر للزمن الداخلي ، أو الزمان الوجودي الذاتي " المصبوغ بالانفعال كزمان الانتظار ، أو زمان الأمل ، وهذا الزمن ليس كما ، وإنما هو كيف لا يقبل القياس على خلاف الزمن الفاعل الذي يطلق على التأثير في الأشياء ، فهو موضوعي وكمي ، وقابل للقياس" .[8]

لقد بكى الشاعر زمن الشباب وندبه في حزن عميق وإن هذه الإشكالية (الشباب/الشيخوخة) تعد محور شعره في الفترة الثانية من حياته وهي الفترة الطويلة بالقياس النفسي للزمن، " الزمن النفسي الداخلي الذي يقاس حسب ماتمليه المشاعر والأهواء الذاتية التي تختلف من شخص إلى آخر ..." [9]

وهذه الإشكالية لا تبرز في قصائد مستقلة وحسب بل تشيع في كل مواضع قصائده، الأمر الذي يجعل منها أهم إشكالية نفسية عانى منها الشاعر وتظهر خاصة في خوفه الشديد من تعاقب السنون وكذلك الخوف من الموت، من ذلك قوله:

فقلت وقد خلفت خمسين حجة ورائي لقد أعجلت طي المراحل
أنوء بعبء السقم بين حشاشة تحود وجسم قد تعرق ناحل
وأسبح في بحر الشكاة لعلني سأعلق يوما من نجاة بساحل [10]

إنها أبيات تعكس بوضوح البعد النفسي العميق للشاعر وإحساسه الحاد بالزمن ، وتقدم لنا تجربة تقترب من التجربة الوجودية ، حين تبرز الجدل القائم بين الشاعر وذاته وعالمه ، مصورة قلق هذه الذات وحيرتها في حاضرها الذي لايمثل لها سوى العجز والفراغ بعد ضياع الشباب ، يقول الشاعر في ذلك :

ألا ساجل دموعي يا غمام وطارحني بشجوك يا حمام
فقد وفيتها ستين حولا ونادتني ورائي هل أمام
فيا شرخ الشباب ألا لقاء يبل به على يئس أوام
ويا ظل الشباب وكنت تندى على أفياء سرحتك السلام [11]

إن ذات الشاعر تصرخ معلنة تقدم السن بها وبداية رحلة الشيخوخة فتجعل من الحمام مكافئا خارجيا لانفعالها الداخلي، فالحمام هنا «هو الشجى الذي يبعث على الشجى»[12] والشاعر لا يتمالك نفسه أمام شجو هذا الحمام فيدعوه ليشاركه حزنه بصوته الشجي مثلما يدعو الغمام ليساعده أيضا على انهمار دموعه انهمار الأمطار الغزيرة. ومع أن الشاعر يعرف استحالة العودة إلى الشباب فإننا نراه يستفهم عن إمكانية العدول عن المشيب والعودة إلى الشباب، وهذا الاستفهام الذي يتكرر كثيرا على مستوى الخطاب الشعري يكشف أن الذات الخفاجية في نزوعها نحو الخلاص من قهر الزمن على الرغم من علمها باستحالة الرجوع إلى الشباب، لم تيأس تماما من تحقيق ذلك الأمل

أو الصوت الداخلي الذي يلازم تجربتها في مواجهة الزمن. «إن هذا الاستفهام يرتبط برغبة خفية في مواجهة المستحيل تلك الرغبة التي تمثل جوهر المأساة». (13)

والشاعر في شيخوخته يظل بين الماضي والحاضر تتنازعه آلام كثيرة فهو بين ندم وحسرة وخوف من المجهول، فذهاب الشباب واقترانه بالماضي يعني عدم قدرة الشاعر على امتلاكه من جديد، لذا جاءت هذه الأسئلة المتلهفة لتبرز إحساس الشاعر بفقد أجمل ما في الحياة. إنه الشباب، يقول:

ألا مضى عصر الصبى فانقضى وحبذا عصر شباب مضـــى
بت به تحت ظـلال المنـــــى مجتنيا به ثمـار الرضـــى
ثم مضى أحبسـه كوكبـــــا منكدرا أو بارقا مومضـــا
فما تصدى ينتحي مقبـــــلا حتى تولى ينثني معرضـــا
وإنما ضـاء بليل الصبـــــى صبح مشيب ساءني أن أضا
لاح ففي عينتي نور الهـــدى منه وفي قلبي نار الغضـــى
وأبيض مـــن فودي بـه أسود كنت أرى الليل بـه أبيضا (14)

و عنصر التضاد الذي اتكأ عليه الشاعر هنا يجسد ثنائية الشباب/المشيب الماضي/الحاضر، وتبلغ هذه المفارقة مداها حين يعمد الشاعر إلى استخدام التضاد اللوني ممثل في الأبيض الدال على الشيب والأسود الدال على شعر الشباب الحالك السواد (ليل الصبى/صبح المشيب)، " حيث تتراسل وظيفة كل طرف منهما ، يرتبط الظلام أو السواد بزمن محبب للشاعر هو زمن الشباب خلافا لمدلوله الشائع ، كما يقترن الضياء بإحساس الرفض والنفور والكراهية في دلالته على زمن الشيب وهو ما يخالف مدلوله الشائع أيضا " (15) كما تكشف أبنية الأفعال المصاغ معظمها في الماضي نحو : مضى ، انقضى ، بت ، تصدى ، تولى ... الخ عن عاطفة الشاعر في حاضر شيخوخته ، وهي عاطفة مشدودة إلى الزمن الماضي : زمن الصبا والشباب .

فالزمان هو مشكلة ابن خفاجة الكبرى، لقد كانت الأيام تمضي وتفلت منه دون أن يستطيع لها وقفا :

ألا إنها سن تزيد فأنقـص ونفضة حمى تعتريني فأرقص (16)

و هاهي الشيخوخة تدفع الشاعر إلى التأمل والنظر فإذا هو يمسح بدموعه ما جناه فيها :

فها أنا أمحو ما جنيت بعـبرتي وأنظر فيما قد عملت أمحـص
وألمح أعقاب الأمور فأرعـــوي وتستشرف الدنيا إلي فأحرص (17)

« وهذا الإحساس الحاد بالزمن أدى إلى اختلاط الأمر على الشاعر والتباس الحقيقة بالوهم، فهو لا يصدق أن تمر السنين بسرعة البرق، كأن صورة ذلك الماضي المشرقة لم تكن ذات يوم، كيف مرت كالحلم ؟ كيف بانت غضارة العيش ؟ كيف ذهبت أجمل فترة من حياة الشاعر؟»(18). كل هذه الأسئلة يكررها الشاعر ويرددها دون ملل

عبر جميع قصائده، يتشوق إلى تلك المرحلة الزاهية من حياته حيث تمتع بالحياة، فيبلغ تحياته إلى ذلك الماضي الجميل ويتمنى عودته، ويشكو الشيب الذي بدأ يغزو رأسه وينقله إلى حياة أخرى مغايرة ليس لديه الاستعداد النفسي لتقبلها وعيشها، يقول:

أقلب عين الرأى طورا فأجتلي ... ويعمى علي الأمر طورا فأفحص
ويا رب ذيل للشباب سحبته ... وما كنت أدري أنه سيقلص
ولمحة عيش بين كأس رويـة ... تدار وظبي باللوى يتقنص
ألا بان عيش كان يندى غضارة ... فيا ليت ذاك العيش لو كان ينكص
وعز شباب كان قد هان برهة ... ألا إنها الأعلاق تغلو وترخص
فمن مبلغ تلك الليالي تحيـة ... يعم بها طورا وطورا يخصص
على حين لا ذاك الغمام يظلني ... ولا برد تلك الريح يسري فيخلص
وقد طلعت للشيب بيض كواكب ... أقلب فيها ناظري أتحرص
كأن لم أقبل صفحة الشمس ليلة ... ولم ينتعل لي دونها النجم أحمص
ولا بت مشغوفا تطير بأضلعي ... قطاة لها بين الجوانح مفحص [19]

إن هذا الخطاب الشعري ينطق بفجيعة الشاعر أمام مأساة الزمن وينكشف عن مرارة الفقد والحسرة العميقة على ذهاب الشباب الذي راح الشاعر يناجيه في لوعة ويعزي نفسه بماضيه السعيد، وما حواه من قوة ومتعة ولذة.

ويتحول الشباب إلى قضية وجودية بالنسبة للشاعر، هذا الأخير الذي نراه في صراع مع واقع زمني يفضي به إلى الإحساس بالغربة – وإن لم يذكر ذلك صراحة – بعد أن أدرك بكثير من الوعي أن الشباب لم يعد ملكه. وإذن فقضية الزمن بالنسبة لابن خفاجة تنحصر في الشباب والصبا والمشيب والكبر، صبا وشباب سرعان ما انقضيا، ومشيب أحال سواد الشباب بياضا.

من هنا تتكشف لنا رؤية الشاعر الوجودية للزمان، فهو يقيس هذا الأخير بالمقياس النفسي، فالزمن لا يعود إلى الوراء بل يتجه دائما في اتجاه واحد، والأعوام التي قضاها الشاعر سعيدا بصباه وشبابه مرت بسرعة بينما زمن الشيخوخة يمتد حتى الموت، والشاعر مذ خط المشيب شعره لا يفتأ يتحسر على الشباب ويذكر أيامه وينبذ المشيب ويمقته، يقول:

أرقت على الصبى لطلوع نجم ... أسميه مسامحة مشيبا
كفانى رزء نفس أن تبدى ... وأعظم منه رزءا أن يغيبا
ولولا أن يشق على المعالي ... للاقيت الفتاة به خضيبا
فلم أعدم هناك به شفيعا ... إلى أمل ولم أبرح حبيبا
غريبة شيب فود إن تمادت ... حياتي آل أسوده غريبا
وعفت كراهة للشيب شيئا ... يكون له شبيها أو نسيبا
وآية شيبة إلا نذير ... فهل طرب وقد مثلت خطيبا

ونؤت بحملها مــــن عبء خطب   وكيف به وقد طلعت رقيبا
وقلت أحسن من حمام الشيب غنى   غراب شبيبة ألف النعيبا (20)

والفكرة الأساسية التي يتمحور حولها هذا الخطاب الشعري هي التحول، تحول الشاعر من زمن الشباب إلى زمن الشيخوخة، وهي الحقيقة المؤلمة التي كاشفت الذات نفسها بها وقد تحولت إلى زمن لا تتقبله، إلى زمن ينذر بالأفول والنهاية القريبة والفناء وهو الإحساس الذي يقود الشاعر إلى الشعور بالمرارة والانطفاء والاغتراب، فالشاعر لا يصف الزمن في لحظة ، بل يصف التحول الزمني ، تحول الإنسان من الشباب إلى المشيب ، كما أن الحاضر لا يشكل استمرارا للماضي في رؤية الشاعر لهذا الزمن ، بل يشكل قطيعة تامة معه ، ذلك أن الشعور بالاغتراب عند الشاعر لا يعيده إلى ذاته الساكنة في الحاضر (حاضر المشيب) بل يعيده إلى ذاته الفاعلة في الماضي (ماضي الشباب)، ومن ثم فالماضي هو الوجود الحقيقي عند ابن خفاجة .

إن كل بيت من الأبيات السابقة يكشف عن مقت المشيب والشوق إلى الشباب وإن كان ذلك لا يظهر جليا للعيان ولكنه مقصود بصفة أو بأخرى في كل معنى وفي كل بيت، لقد فعل المشيب فعله بالشاعر جسديا ونفسيا فجعله ينظر نظرة الزاهد المعتبر :

أما وشباب قد ترامت به النوى   فأرسلت في أعقابه نظرة عبــــرى
لقد ركبت ظهر السرى بي نومة   فأصبحت في أرض وقد بت في أخرى
فها أنا لا نفس تخف بها المنى   فتلهو ولا سمع تطور به بشـــــرى
أقلب جفنا لا يجف فكلـــما   تأوهت من شكوى تأملت عن شكرى (21)

وترتفع نغمة الفقد - فقد الشباب - عنده:

واني إذا ما شاقني لحمامــة   وهزتني لبارقة ذكـــــــــرى
لأجمع بين الماء والنار لوعـة   فمن مقله ريا ومن كبد حـــــرى
وقد خف خطب الشيب في جانب الردى   فصارت به الصغرى التي كانت الكبرى
وللشعر عندي كلما ندب الصبى   فأبكى محل ألحق الشعر بالشعـرى
فليت حديثا للحداثة لو جـــرى   فأسلى وطيفا للشبيبة لو أســرى (22)

وتلعب صورة الحمام والبرق دورا خطيرا في إعلاء صوت الفقد والثكل، ويعكس التضاد التعبيري (الماء/النار)، (ريا/حرى)، (الشيب/الشباب)، أيضا هذه الثنائية أو المفارقة التي بلغت مداها .

ويلتقي الاغتراب الزماني الذي يعانيه الشاعر مع اغتراب مكاني آخر، وهنا تتولد في نفسية ابن خفاجة حساسية خاصة تتجاوب مع الأحزان فيثيره نواح الحمام ويبعث فيه الحزن فيقول في إحدى قصائده المدحية :

سجعت وقد غنى الحمام فرجعا   وما كنت لولا أن تغنى لأسجعا
وأندب عهدا بالمشقر سالـــفا   وظل غمام للصبى قد تقشـــعا
ولم أدر ما أبكى أرسم شيبـــة   عفا أم مصيفا من سليما ومربعا

وأرجع توديع الأحبة فرقـة شباب على رغم الأحبة ودعا [23]

إن الحمام هنا «هو رمز لمحتوى شعوري مكبوت»[24] في ذات ابن خفاجة يتمثل في ألم الفقد والشجو العميق الذي هاجه الحمام في نفسه، حيث راح يستعيد ذكرياته الدفينة ويخرج ما يكبته من ألم وحسرة باكيا بمرارة، على صباه وشبابه معا وأيامه الزاهية التي أفلتت منه بفعل الزمن، لقد تحول الشباب بالنسبة لابن خفاجة إلى رسم أو طلل يمكن أن يبكيه كما بكى الشعراء من قبله على أطلالهم، ومن المحتمل أن الطلل هنا هو رمز للزمن نفسه الذي يتسم بالجاذبية رغم انقضائه، وهو أيضا – الوقوف على الطلل – «وما يمثله من تجربة وجودية أمام الفناء يتمخض عن شعور بالغربة، غربة الإنسان في مواجهة الزمان والمكان». [25] إن الأطلال والمعاهد البالية ، كلها تعكس صورة الشاعر الداخلية واضطرام نفسه، "فإذا ما زاد الحنين وغلب تحول إلى تشخيص الشبيبة أو زمان الشباب ، في صور تتحرك ، أو تتكلم وكأنها شخوص حقيقية في إطار شعري بالغ الروعة وعطاء وجداني عميق أين يكثر وصف الزمان الماضي بكلمات رقيقة مؤثرة ..." [26]

والشاعر لا يستكين ولا يرضخ لمشيئة الزمن، إذ يتصدى له باستعادة الماضي «وتحويله فنا شعريا يتخطى الزمان ويثبت في وجه التحول»[27]

فلا سبيل أمامه إلى التراجع على الزمن إلا عبر الذكرى، «وهي نوع من الإحياء الوجداني للزمن فكأن الماضي وان تولى فانه يظل مقيما في النفس، يضيء غيابها ويدر لها بالألفة والعزاء عبر خرائب الحاضر وأطلاله»[28] ، وهذا ما يكشف عنه الخطاب الشعري الخفاجي، فالذات لا تجد أمامها من سبيل سوى أن تصطدم بهذا الواقع بعد أن فجعت فيه، فراحت تبعث الماضي الزاهي عبر آلية الحلم، هذا الحلم الذي يغدو بالنسبة للذات الشاعرة سلاحا لمقاومة الحاضر، لأن العودة للماضي هي بمثابة البديل عن الحاضر المأساوي الذي أدرك – ابن خفاجة – من خلاله أنه لم يعد شابا :

وما كان أشهى ذلك الليل مرقدا وأندى محيا ذلك الصبح مطلعا
وأقصر ذلك العهد يوما وليلـة وأطيب ذاك العيش ظلا ومرتعا

.....

زمان تقضي غير ذكرى معاهـــد تسوم حصاة القلب أن تتصدعا
تحولت عنه لا اختيارا وربمـــا وجعت على طول التلدد أخدعا
وقد فات ذاك العهد إلا تذكـــرا لواني على ظهر المطي توجعـــا
وإني وعيني بالظلام كحيلـــــة لآبى لجنبي أن يلائم مضجعـا
وأكبر شأنا أن أرى الصبح أبيضا بعين ترى ربع الشبيبة بلقعـــا

.....

كأني لم أذهب مع اللهو ليلـة ولم أتعاط البابلي المشعشعـــا
ولو أتخايل بين ظل لسرحـة وسجع لغريد وماء بأجرعـــا
ولم أرم آمالي بأزرق صائـب وأبيض بسام وأسمر أصلـعـا

وأبلق خوار العنان مطهـــــم طويل الشوى والشأو أقود أتلعا (29)

إن الشاعر يعمد دائما إلى المقابلة بين الماضي والحاضر، بين الشباب والمشيب ليكشف عن المفارقة ويعمق التجربة، وينمي دلالة الاغتراب الزماني والتوتر والصراع الذي تعيشه ذاته بين الماضي والحاضر، فالشاعر في هذا الخطاب الشعري بالذات، يعمد إلى وضع الحاضر مقابل الماضي وان كان يتحدث عن الحاضر من خلال الماضي، إنه يمزج الزمنين مزجا عجيبا، فنراه في بداية الخطاب يتحدث عن الحاضر وكيف هاج الحمام في نفسه ذكرى الزمن الماضي وكيف أنه يبكي ضياع الشباب ثم يسترجع الماضي ويصف أيامه ولياليه بالقصر ثم يعود إلى الحاضر المؤسي فيعي أن الزمن الماضي قد انقضى ولم يترك في القلب سوى الحسرة، ثم يعاود في آخر المطاف الرجوع إلى الماضي فيسترجع ليالي اللهو والأنس ولذة التمتع بالطبيعة وقوة الشباب، وهذه الأخيرة يسترجعها بذكرى ممارسة الفروسية ووصف فرسه القوي.

و هكذا نلاحظ أن الزمن ينكسر في ذهن الشاعر لأنه يتعامل مع واقع قد مضى وهو يعيش لحظة الحاضر، وعملية انكسار الزمن هنا متعلقة بعملية الاسترجاع أو الذكرى والحلم وهي التي تقف وراء هذا الدمج العجيب للزمنين معا في حديث واحد، غير أن هذه المقارنة بين الماضي والحاضر تفضي بالشاعر إلى اختيار الزمن الماضي ومعايشته لأن «طبيعة الموقف الذاتي المفعم بشهوة الحياة، يفرض على الشاعر الهرب من فعل الزمن التدميري إلى عالم الذكريات أو عالم الحلم وما يحمل بين طياته من فرح ولذة، ويكون هذا الهرب عادة من الكبر والعجز والضعف إنه الهرب من اليأس والموت إلى الحيوية والانطلاق»(30)

وإذا كانت هده المقابلة أو المقارنة بين الماضي والحاضر، تبرز معاناة ابن خفاجة التي تكمن في صراعه مع الزمن، بين الرغبة في أن يعود شابا يتمتع بالقوة والانطلاق، وعجزه عن تحقيق ذلك وبالتالي تتعقد حالته النفسية، فإنها - أي المقابلة – تؤكد دائما انتصار الزمن الماضي وسيطرته سيطرة كلية على مخيلة الشاعر ونفسيته وهذا ما تكشف عنه عدة مؤشرات لغوية كصيغ التفضيل :(أشهى، أندى، أقصر، أطيب) وأفعال المضارع المجزوم الدالة على الماضي مثل: لم أذهب، لم أتعاط، لم أتخايل، لم أرم، وكلها أفعال مبادرة وقوة وحركية ، تدل على نزوع الذات نحو ذلك الماضي وشعورها بنوع من الاستقرار النفسي في ظل هذا الحلم الشبابي، وتفصح عن رغبة نفسية دفينة في أعماق الشاعر ، ضاربة في لاوعيه .

وهكذا يقدم هذا النص الشعري وغيره الكثير، صورة حقيقية للتعارض بين الماضي والحاضر، بين الشباب والشيب، بين القوة والضعف، بين الحركة والسكون. وهو تعارض يكشف عن موقف ابن خفاجة من الزمن، هذا الزمن الداخلي الذي يحمل معه الشاعر إلى الوراء دائما، ولا تفسير لهذا التقابل بين الزمنين المتضادين سوى تعلق

الشاعر بماضيه «وهذا التشبث بالشباب، يعكس صورة التمسك بالحياة، فالحياة ليست مجرد أيام تتوالى وسنين تنقضي، وإنما هي قدرة وممارسة وشروع ومحاولة لتحقيق ذلك الشروع وكأن على الإنسان أن يتحقق من أنه يعيش إذا كان قادرا على الفعل»(31) ، كما أن التشبث بالماضي الزاهر كما يصفه يوسف اليوسف " هو طموح لإعادة اثباته من جديد، وبالتالي فهو نفي للانحدار أو التساقط القائم شريطة أن يفهم الإثبات على أنه توكيد أو طموح لتحقيق ماهية الازهرار المنطفيء لاستعادة هذا الازهرار بنسيجه بلحمه ودمه ,والذي كان عليه تماما أي باستعادة مضمونه الجوهري»(32) .وهذا ما يعكسه الخطاب الشعري حيث يصور الفعل والممارسة في الزمن الماضي من خلال الأفعال المضارعة المنفية للدلالة على الزمن الماضي (لم أذهب , لم أتعاط, لم أتخايل , لم أرم ... الخ .) وهكذا تجيء نسبة الفعل الماضي أعلى من نسبة غيره، وهذا – بلا شك – دليل على إحساس الشاعر بالزمن الماضي أكثر من غيره , وهذا الإحساس يعد المنطلق المحوري للخطاب الشعري . يضاف إلى ذلك أن أفعال الممارسة والفعل التي طغت على خطاب الشاعر , تمثل الحركة والحيوية في مقابل السكونية والعجز اللذين يطبعان حياة الشاعر في الحاضر.

خلاصة

هكذا يمكن القول إن الماضي ـ ماضي الشباب ـ عند ابن خفاجة هو الوجود الحقيقي، لدا فهو لا يمل من استرجاعه لأنه يسعده ويحقق له اللذة ,بينما الحاضر الممثل في الشيخوخة هو الألم والحزن والغربة وكل ما يشعره بالانطفاء . وهذا الحضور المكثف للماضي في مقابل الحاضر هو أبرز ما يميز خطابه الشعري وأهم ما يشكل رؤيته للكون والزمن .

الهوامش والإحالات

(1) الروم.الآية 54.

(2) الحج. الآية 5.

(3) ابن شكوال. الصلة.د ط .تحقيق إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري . دارا لكتاب اللبناني.د تا . ج 1. ص165.

(4) ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم . الديوان. د ط. تحقيق مصطفى غازي. الإسكندرية: منشأة المعارف، 1960م. ص 06.

(5) نفسه ص 07.

(6) ينظر : ميرهوف، هانز . الزمن في الأدب .ترجمة أسعد زروق، مراجعة العوضي الوكيل . القاهرة : مؤسسة سجل العرب، 1972م. ص 07 .

(7) البابة، محمد رضوان في الأدب الأندلسي ط 1 سورية، دمشق : دار الفكر للطباعة والنشر 1421، 2000 م ص334.

(8) صليبا، جميل. المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية . دط. بيروت، لبنان : الشركة العالمية للكتاب . دار الكتاب العالمي، 1414 هـ 1994 م. ج 1. ص 638.

(9) زايد، عبد الصمد .مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة . دط. الدار العربية للكتاب، 1988م .ص 104.

(10) نفسه ص 262.

(11) نفسه ص 64 . 65.

(12) اليوسف، يوسف. الغزل العذري ط 2. الجزائر .بيروت: ديوان المطبوعات الجامعية ـ دار الحقائق للطباعة والنشر، 1981م ـ 1982 م. ص 48 .

(13) يوسف، حسني عبد الجليل، الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ص 109.

(14) ابن خفاجة المصدر السابق . ص 85 .

(15) عيسى، فوزي. في الأدب الأندلسي. ط1 .الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، 2009 م. 1430 هـ. ص 210.

(16) نفسه. ص 278.

(17) نفسه. ص 278.

(18) طحطح، فاطمة. الغربة والحنين في الشعر الأندلسي . ط 1. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 1993م. ص 211.

(19) ابن خفاجة. المصدر السابق. ص 278 .

(20) ابن خفاجة. المصدر السابق. ص 127 –128.

(21) نفسه. ص 148.

(22) نفسه. ص 148، 149.

(23) نفسه. ص 56.

(24) اليوسف، يوسف. المرجع السابق. ص 49.

(25) يوسف، حسني عبد الجليل. المرجع السابق. ص 128 .

(26) الداية، محمد رضوان. المرجع السابق. ص 336 .

(27) عوض، ريتا . بنية القصيدة الجاهلية الصورة الشعرية لدى امرئ القيس. ط 1. بيروت : دار الآداب، 1992م.ص 249.

(28) الحاوي، إيليا. شفيق المعلوف شاعر عبقر. ط 1. بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1978 م. ص 105 .

(29) ابن خفاجة. المصدر السابق. ص 56، 57.

(30) السد، نور الدين . الشعرية العربية دراسة في تطور القصيدة العربية حتى العصر العباسي، الجزائر، بن عكنون: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995 م. ص 320.

(31) يوسف، حسني عبد الجليل. المرجع السابق ص 111.

(32) اليوسف، يوسف. مقالات في الشعر الجاهلي. د ط. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1975 م ص 121.